آراء للمناقشة

التناقض بين المجتمع والتفكير...

بقلم عبد الله القصيمي

اكثر الناس يحولون ما يسمعون وما يقرأون الى حقائق يختزنونها دون ان يجروا عليها تجربتهم الفكرية .. انهم اجهزة استقبال مسجلة . وهم اذا كذبوا شيئا لا يكذبونه لانهم يفكرون بل لانهم يصدقون شيئا آخر . فالتكذيب عندهم نوع من التصديق وليس نوعا من التفكير .. هم يكذبون الحقائق والروايات والآراء التي تخالف مسلماتهم ، لا التي تخالف منطقهم اذ ليس لهم منطق !

والذين لا يفكرون ينكرون الحقيقة بالاسلوب الذي يثبتون به الخرافة فهم في الحالتين مصدقون ! وهم دائما يجمعون بين النقيضين : بين جحود اكبر الحقائق وتصديق اسخف الخرافات ! وهؤلاء لا يحيون بالفكر بل بالتكيف الاجتماعي .وهم لا يعملون شيئا للتدخل في توجيه حياتهم ولا يعطون شيئا انسانيا ويبدون وكأنهم بلا اية مشاكل عقلية ..

اما الذين يفكرون فهم دائما قليلون وغرباء ...

لماذا يفكر قوم ولا يفكر الآخرون ؟

التفكير والتصديق نوعان من العادة ونوعان من النشاط والخوف من النشاط . وظروف المجتمع وخصائصه هي التي تصنع احدى العادتين ..

توجد مجتمعات تزجر التفكير وتعاقبه وتغنى عنه بأن تعطي جميع الحقائق الماضية والآتية وجميع الاحتياجات النفسية في كتب وتعاليم وسلوك جماعي موحد مقدس .. وهي ترى دائما ان التعاليم والروايات اضفى من واقع الحياة وضرورات الاحياء ، وترى كذلك ان حكمة الآباء وتجربة التاريخ قد تقمصت كل الظروف وفسرتها تفسيرا شاملا خالدا واعيا .. فكل شيء مسطور ومنقول ..

وهذه المجتمعات التي لا تحتاج الى التفكير هي مجتمعات غير متطورة . فحياتها سهلة وضيقة ، ليست معقدة تعقيدات فنية او صناعية او علمية او سياسية او اجتماعية لكي تحتاج الى تعقيدات فكرية مماثلة .ومشاكل الانسان الكبيرة المعقدة هي التي تفرض عليه ان يكون مفكرا ..

وفي طبيعة بعض الناس ان يفكروا كما ان في طبيعة بعض المواد ان تكون مشعة . وكثيرون من الناس يفكرون لانهم قلقون او متعبون او ميالون للاستعلاء والتمرد ، او متفوقون في طاقتهم الذهنية او مصابون بعقدة من عقد الشعور !..

وتوجد مجتمعات وظروف اخرى تخلق الاحتياج الى الفكر : تخلقه بالضرورة ، وتخلقه بالتعويد ، فالذين يحيون حياة صعبة وعنيفة وقوية ومهددة بالخطر وفي ظروف قلقة ومتحركة لا بد ان يكونوا مفكرين وان يشعروا بالحاجة الى التفكير مهما حرم عليهم ان يكونوا كذلك !

والذين يعلمون ان يفكروا لا بد ان يتعلموا التفكير. فالحياة مزيج من التعليم والحاجة .

والبشر يتعلمون التفكير كما يتعلمون القراءة والخط والرسم واللغة ...

وكما توجد مجتمعات تستغني عن كثير من مزايا الحضارة ومهاراتها ، كذلك توجد مجتمعات بشرية تستغني عن اكبر مزايا الحضارة وهي الافكار ..!

وأيهما افضل وأوجب ان نتعلم القراءة والكتابة والكلام ام ان نتعلم التفكير ؟

جميع الناس يجدون انهم لا بد أن يتعلموا في هذه الحياة شيئا ، فهل وجدوا انهم لا بد ان يتعلموا التفكير ؟

التفكير هو تحويل الآخرين والكون من مجرد وجود مغاير الى موضوع ومن كتلة الى سبب ومسبب !

والمجتمعات غير المفكرة يفسد كتابها ومعلموها ودعاتها وزعماؤها والاقوياء فيها ويضلون دون ان يخشوا سقوطا او افتضاحا . وهؤلاء لا يرهبون شيئا مثلما يرهبون المجتمع المفكر لانه هو الذي لا بد أن يسقطهم او يغيرهم . ولا يخشى الفاسد والضال شيئا كما يخشيان الفكر الناقد ، ولا يرحبان بشيء ترحيبهما بغباوة التصديق ـ انهما يرهبان التفكير رهبة لص الليل لمصباح الشرطي وخفق قدميه !

والتفكير هو بصر الجماعات ، تكتشف به طريقها ويريها ما فيه من أوحال واخطار وحفر ، وهو سلاحها الذكي الذي تقاتل به في الظلام ..!

ان اية جماعة لا بد أن تتمرد على هوانها وشقائها لو أنها استطاعت ان تتحول من مصدقة الى مفكرة . فالتفكير هو صديق الجماهير وعدو اعدائها ..

التفكير انتاج ومقاومة ، والتصديق استهلاك وهزيمة !

والتفكير متعب لانه تخط وتعر وفراق وابتداء وتنازل ومواجهة !

وكم هو مخيف ان نحول حياتنا كلها الى تفكير .. وكم هو سخيف ان تكون كل حياتنا بلا تفكير ...

وغير المفكرين مفتوحة حدودهم لكل الدعايات والاكاذيب الكبيرة تغزوها بلا حراسة ولا ابراج مراقبة .

* *

وسدنة الاوضاع ــ كل الاوضاع ــ لا بد ان يعادوا التفكير لانه بطبعه عدو للاستقرار .. والوضع ــ أي وضع ــ ليس الا استقرارا قد تحول الى قانون او تقليد او عقيدة او نظام ــ أي تجمد تأريخا ..

وكل مجتمع لا بد ان يخشى التفكير على نحو ما لان المجتمع نوع من الاستقرار الذي ينافي التفكير .. اذن لا بد ان يوجد نوع من الصراع القائم على التناقض بين المجتمع والفكر .. ولكن المجتمع القوي يستطيع ان يتحمل جميع الهزات الفكرية لانه قادر على التكيف والتطور والهضم والمقاومة . وليس كذلك المجتمع الضعيف . والحضارة كلها محصول تصادم بين وضع وفكر ...

وتوجد في كل المجتمعات ــ بنسب مختلفة ــ طبيعة المقاومة للافكار ، وهي محتاجة الى هذه المقاومة ، ولولاها لانهار كل مجتمع ، اذ ان على المجتمعات ان تتقبل الافكار باعداد وتدبير ونظام كتناول الطعام تماما . وهذا موجود في طبع كل مجتمع حتى أسرعها تغيرا ..

والذي يخشى دائما ــ كما يلاحظ دائما ــ هو بطء المجتمع في قبوله للافكار لا سرعة الافكار في تغييرها للمجتمع ..!

* *

افكار **ضد** التفكير !

* البشر دائما يسيرون في طريق لا يبصرون نهايته !

* الحركة القوية اجدى من الفكرة الصحيحة !

* العاجزون هم الذين يبحثون عن الفكرة الصائبة خوفا من الوقوع في الخطأ المقدام !

* البحث عن الخطأ والصواب هو عمل الضعفاء والفلاسفة !

* العجز يتحول احيانا الى تفكير ، والتفكير في بعض حالاته نوع من الفرار ...

* المغامرون لا يحتاجون الى تلقي النصيحة من احد لكي يتقدموا ..!

* الاقوياء لا يتأنقون او يتأنون في وضع الخطط الفكرية .. انهم يتقدمون بحوافز الحياة التي لا تنتظر الفكر لتسأله الرأي .. وهم لا يخشون الخطأ ولا يستأذنون الاخرين ، وانما يتحركون ليسير وراءهم الاخرون !

والذين يخشون الخطأ لا يسيرون في الطريق الواسع !

* تنتقل بصيرة الزعيم العظيم من تفكيره الى عزيمته !

* الفرق بين الخطأ والصواب هو مقدار الفرق بين خطوتين . والفرق بينهما فرق في الاخراج لا في التفكير ..

* ليس الخطأ والصواب افكارا بل ضربات قوية وضعيفة . والضربة القوية تصبح فكرة صحيحة ، والضربة الضعيفة تصبح فكرة خاطئة ...

* القائد الموهوب هو الذي يجيد ان يفعل لا الذي يجيد ان يفكر .. والتفكير الرحب العميق يبدد الارادة ويخيفها .. لهذا لا يكون القائد المنتصر الا ضيق الفكر متعصبه . وهذه ليست رذيلة في القائد بل فضيلة . وفي هذه الفضيلة تكمن احتمالات اليمة ، وتكمن فيها ايضا احتمالات النصر العظيم .

* القادة لا يحتاجون الى الافكار قدر حاجتهم الى الحدس والحافز والتصميم . وهم يتحركون ابلغ مما يفكرون

* اعمال القادة تتحول الى تفكير ولكن افكار المفكرين لا تتحول الى قادة !

* الذين استشاروا وفكروا فأخطأوا اكثر جدا في التاريخ من الذين اقدموا فأخطأوا ..!

* قدرتنا على التنفيذ تشكل افكارنا ، وافكارنا لا تهبنا هذه القدرة ..

* الجماهير قوة ضاربة لا قوة واعية !

* خطط الاعمال الكبيرة لا توضع تفاصيلها مقدما ولكن الخطوة الاولى تهيء للخطوة الثانية ..

* لم يحدث ان وجد من هندسوا التاريخ ليخدث طبق تخطيطاتهم .

* جميع الذين صاغوا التاريخ أية صياغة كانوا يعبرون عن قانون الحركة لا عن قانون التفكير ...

حتى المفكرون الذين صنعوا الاحداث انما فعلوا حينما انتصرت فيهم ارادة الحركة على ارادة الفكر .. فالمفكر لا يفعل الا في اللحظة التي ينهزم فيها تفكيره ــ في اللحظة التي يصبح فيها غير مفكر . لان التفكير هو دائما موقف خارجي من الاشياء ... وكلما تعمقنا في التفكير تراخت فينا حوافز الاقتحام ..!

كل اعمالنا انبثاق عن الحركة ، والفكر كله مفسر للحركة لا خالق لها . واعظم الناس حياة هم اقواهم حركة ، وليسوا اقواهم تفكيرا ..!

* الفرق بين الشمس وبين اصغر ذرة فرق في مقدار الحركة لا في مقدار الفكرة ..!

القاهرة — **عبدالله علي القصيمي**

صدر حديثا — **عن دار الآداب**

قناديل اشبيليه

مجموعة قصص رائعة للقصاص السوري المعروف

الدكتور عبد السلام العجيلي

قصص انسانية عميقة ذات جو سحري عجيب

ثمن النسخة ١٥٠ قرشا لبنانيا او ما يعادلها

تطلب من دار الآداب ــ بيروت ص. ب. ٤١٢٣